



(١)

بعد الاتفاق الأخير الذي قادت فيه الولايات المتحدة المفاوضات مع إيران، لم نعد نملك ترف الانتظار والمراهنة على الوقت الذي ثبت أنه ليس في صالح العرب. إذ رغم تقدير البرنامج النووي الإيراني لأكثر من عشر سنوات، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أنها فازت بالكثير من الاتفاق الذي جرى توقيعه في فيينا يوم ١٤ يوليو/تموز الحالي.

وبحل العقد الذي استغرق ٢١ شهرا من المناقشات والشد والذب فإن ما حققه إيران لا يشكل علامة فارقة في مسیرتها فحسب، ولكنه سوف يحدث تحولا جذريا في الخرائط السياسية للشرق الأوسط بأسره، وهو ما يفرض على الدول العربية أن ترتيب أدواتها وتعيد النظر في حساباتها لكي تتعامل مع الموقف المستجد بما يستحقه من رشد ومسؤولية.

إذا كانت إيران في موقف القوة في الوقت الراهن، وهو ما مكّناها من الصمود والاستمرار في المناورة والمحاجة مع أميركا والدول الكبرى طوال ١٢ سنة، فإن تلك القوة ستتضاعف بعد الاتفاق، فهي تملك قرارها منذ قيام الثورة ١٩٧٩ "

ذلك أن إيران إذا كانت في موقف القوة في الوقت الراهن، وهو ما مكّناها من الصمود والاستمرار في المناورة والمحاجة مع الولايات المتحدة والدول الكبرى طيلة ١٢ سنة، فإن تلك القوة ستتضاعف بعد الاتفاق، فذلك البلد الذي وصل عدد سكانه إلى ما يقرب من ثمانين مليون نسمة يملك قراره منذ قيام الثورة الإسلامية في العام ١٩٧٩ وتلك ميزة كبرى.

ورغم الحصار فإنه استطاع أن يطور قدراته العسكرية والعلمية، واستفاد من الوهن العربي حتى مدد نفوذه في أربع دول عربية (العراق وسوريا ولبنان واليمن)، وبعد الاتفاق ورفع العقوبات فإلى جانب دخوله إلى النادي النووي، فإنه سوف يسترد ١٢ مليار دولار مجمدة له في الخارج.

وسيعود إلى معدله الطبيعي في إنتاج النفط بحيث يتاح له أن ينتج أربعة ملايين برميل يوميا، بدلا من ١.٥ مليون فقط أثناء

الحصار، من ثم سيحتل مكانته كرابع دولة منتجة للنفط في العالم وثاني دولة تملك احتياطي في الغاز. وهو ما يفتح الباب واسعا أمام إيران في المستقبل لكي تصبح قوة اقتصادية يعمل لها حساب.

وإذا أدركنا أن ذلك سوف يضاف إلى قوتها السياسية العسكرية فلا غرابة أن يسوغ ذلك ترشيحها كي تصبح الأقوى نفوذا في المنطقة والأقدر على مواجهة الخطر الذي أصبحت تمثله جماعة داعش (تنظيم الدولة الإسلامية) ومشروعها الذي ادعى إقامته. ولا أستبعد ما قيل من أن هذا العامل بالذات من الأسباب التي شجعت الولايات المتحدة على إبرام الاتفاق مع طهران، والتعميل عليها في إجهاض مشروع داعش الذي فشلت الدول العربية المعنية في وقف تمدده بالمنطقة.

(٢)

الطريق أمام إيران ليس سهلا، ذلك ان تداعيات الداخل لم تتبلور بعد، فضلا عن أن علاقاتها مع العالم العربي تحتاج إلى ترميم، تتحمل طهران قدرًا من المسؤولية ويتحمل العالم العربي قدرًا آخر. إذ لا يشك أحد في أن الاتفاق سوف يستنفر التيار المحافظ في إيران الذي لا يزال عند موقفه من "الشيطان الأكبر"، كما أنه سوف يرجح كفة التيار الإصلاحي. وسوف تتضح الصورة أكثر في الانتخابات التشريعية التي تجري في فبراير/شباط من العام المقبل. علما بأن مصطلح الإصلاحيين في إيران يشمل طيفا واسعا من التيارات الليبرالية والقومية والإسلامية التي تختلف مواقفها إزاء مشروع الثورة الإسلامية والعالم العربي والولايات المتحدة وإسرائيل.

في هذا الصدد فإن أحدا لا يستطيع أن يتغافل التعقيدات الكامنة في علاقة إيران بالعالم العربي، ذلك أنه في السنوات الأولى للثورة التي رفعت فيها السلطة الإيرانية رايات الانحياز للمستضعفين والدفاع عن القضية الفلسطينية، كانت مشكلة إيران مع أغلب الأنظمة العربية، إلا أن الموقف تغير الآن بحيث أصبح لإيران مشكلاتها مع أغلب الشعوب العربية وليس الأنظمة فقط. إذ رغم تقدير كثيرين لموقفها إزاء القضية الفلسطينية، فقد تراجع التعاطف الشعبي العربي مع إيران لأسباب عده، بينها تمددها في العراق ومساندتها لنظامها الطائفي المعادي لأهل السنة، إضافة إلى الجهود التي يبذلها المنسوبون لاختراق المجتمعات السنوية منها. أيضا مساندتها للنظام الوحشي في سوريا إلى حد ضلوعها في الحرب ضد إرادة الشعب السوري بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

مما حسب على إيران كذلك وسحب من رصيد نظامها مساندتها لانقلاب الحوثيين، الأمر الذي أحدث ذakra في الخليج، وأدى إلى إدخال اليمن في دوامة الفوضى التي تکاد تضمه إلى قائمة الدول الفاشلة.

هذه ممارسات تحتاج إلى تصويب وترشيد من جانب طهران. ذلك أنها لم تشوّه صورة إيران في العالم العربي فحسب، ولكنها أيضاً أساءت إلى قيم الثورة الإسلامية ذاتها، إذ أزعم أن فيها من طموحات الدولة ومشروعها الطائفي بأكثر مما فيها من القيم التي بشرت بها الثورة وأيدتها أغلب الشعوب العربية عند انطلاقها في العام ١٩٧٩.

(٣)

"تراجع التعاطف الشعبي العربي مع إيران لأسباب عده، بينها تمددها في العراق ومساندتها لنظامها الطائفي المعادي لأهل السنة، إضافة إلى الجهود التي يبذلها المنسوبون لاختراق المجتمعات السنوية منها. أيضاً مساندتها للنظام الوحشي في سوريا إلى حد ضلوعها في الحرب ضد إرادة الشعب السوري "

إذا كانت أسهم إيران في صعود نسبي، فإن أسهم العالم العربي (المشرق تحديدا) تتجه إلى التراجع والهبوط بحيث أصبح في أضعف حالاته. إذ صرنا إزاء جسم بلا رأس، لا يعاني من الهزال فحسب ولكنه صار معرضًا للتآكل بعد انهيار الثنين من أهم دوله هما سوريا والعراق وإشاعة الدمار والخراب في دولتين آخريتين هما اليمن ولibia، ناهيك عن أن قضيته التي كانت

"مركيزية" يوماً ما – فلسطين إن كنت نسيت – كادت تسقط من أجندة الأنظمة.

إلى جانب ضعفه وانفراط عقده فإن العالم العربي ظل جزءاً من إستراتيجيات الدول الكبرى، الأمر الذي افقده رؤيته الإستراتيجية المستقلة. حتى "العدو" اختلفوا حوله، إلى الحد الذي ادعت في ظله إسرائيل بأنها منحازة لأهل السنة ضد التطرف الشيعي وأنها عنصر نشط.

حين أصاب الوهن الجسم العربي فإن ذلك أثر على وزنه الإستراتيجي في حسابات الدول الكبرى. وقرأنا ما كتبه في هذا الصدد مايكيل هايدن الرئيس الأسبق للمخابرات المركزية الأمريكية إذ اعتبر أن خطر الشرق الأوسط أصبح أمراً ثانوياً في نظر الولايات المتحدة التي أصبحت ترى أن الصين تمثل الخطر الأكبر الأجرد بالاهتمام.

ولا غرابة والأمر كذلك في أن تراهن واشنطن على دور إيران في إدارة الصراع بالشرق الأوسط، غير مكتيرة بمخاوف وانتقادات الأصدقاء واللحاء التقليديين في المنطقة، وغاية ما فعلته أنها اكتفت بإرسال وزير الدفاع الأميركي لزيارة بعض عواصمها وتطيب خواطر المسؤولين الغاضبين منها.

(٤)

كيف سيتعامل العالم العربي مع إيران في وضعها المستجد؟ بافتراض أن الأمور ستمضي كما خطط لها، أعني إذا نفذ الاتفاق ولم يتعرض لانتكاسة تستعيد الخصم وتجهض أمل التفاهم والوئام، فإن العالم العربي إزاء التشكيل الجديد في خرائط المنطقة الذي سيترتب على الصعود الإيراني سيكون مطالباً بأن يحدد إزاءه موقفاً واضحاً.

في هذا الصدد تلفت النظر مفارقة شهدتها منطقة الخليج أخيراً، ذلك أنه في أعقاب توقيع الاتفاق سارعت دولة الإمارات إلى تهيئة طهران على الإنجاز الذي تحقق، وأعقبتها الكويت، إلا أن المملكة العربية السعودية انتقدته بشدة، حتى كتب رئيس تحرير الشرق الأوسط التي تعبّر عن وجهة نظر الرياض في قضايا السياسة الخارجية مقالة في اليوم التالي مباشرة (١٥/٧) كان عنوانها "الاتفاق النووي يفتح أبواب الشر".

وإذا تذكّرنا أن موضوع الجزر الإماراتية الثلاث التي اتهمت إيران باحتلالها ظلت طوال الثلاثين سنة الماضية مصدراً لاشتباك مستمر مع طهران، قادته دولة الإمارات وتضامنت معها بقية دول الخليج، فستجد أن مساعدة أبو ظبي لتهيئة طهران بالاتفاق عبرت عن تطور مهم في التفكير السياسي.

وفيما يلي نستعرض السيناريوهات والخيارات المتاحة أمام الدول العربية في ظل الوضع المستجد وهي ثلاثة على النحو التالي:

– إبقاء الوضع الراهن كما هو، بحيث يستمر العالم العربي في الانكفاء على ذاته والاستغراق في الحرب ضد الإرهاب، مع ترك المجال لكي تحدد كل دولة سياستها الخارجية في ضوء تقديراتها وحساباتها الخاصة. وهو ما يعني استمرار تمدد النفوذ الإيراني في المزيد من الدول العربية على الصعيدين السياسي والمذهبي.

"من السيناريوهات القائمة: إبقاء الوضع الراهن كما هو، بحيث يستمر العالم العربي في الانكفاء على ذاته والاستغراق في الحرب ضد الإرهاب. أو إعلان حالة الاستنفار واحتشاد الدول العربية لمواجهة القوة الإيرانية. أو إعمال العقل والسعى للتفاهم مع إيران"

– إعلان الاستنفار واحتشاد بعض الدول العربية لمواجهة القوة الإيرانية الصاعدة، بدعوى تشكيل محور سنى في مواجهة المد الشيعي. وستكون المراهنة في هذه الحالة على دور تركيا والسعودية، لقيادة ذلك المحور.

وذلك يعني أن كل منهما أسوأ من الآخر. أولهما الدخول في حرب منهيبة مفتوحة تعيد إلى الأذهان الصراع الصنفوبي العثماني. الثاني يحقق لإسرائيل حلمها الذي يمكنها من اصطياد أكثر من عصفور بحجر واحد. من ناحية لأن ذلك يضمها

إلى النسيج العربي باعتبار أن الجميع يواجهون خطراً مشتركاً. ومن ناحية ثانية فمن شأن ذلك أن يسقط القضية الفلسطينية تماماً من الذاكرة ويمكن إسرائيل من إنجاز مهمة ابتلاع كامل التراب الفلسطيني. من ناحية ثالثة فإن ذلك يؤدي إلى إنهاء إيران بما يناسب إسرائيل القوة الأولى في المنطقة.

- الخيار الثالث يتمثل في إعمال العقل العربي للسعى إلى التفاهم مع إيران أملاً في ضم قوتها المتنامية لتصبح رصيداً مضافاً إلى قوة الأمة العربية والإسلامية، لها وليس عليها. ورغم أن عناوين كثيرة وخطوات عدّة يفرضها ذلك الخيار، فإنني أزعم أن تحقيق ذلك الهدف ليس أمراً مستحيلاً إذا توفر له الحكماء والخبراء الذين لم يندثروا بعد في العالم العربي. وبواسع هؤلاء أن يحددو ناقط الاتفاق والاختلاف، والعاجل والآجل فيما ينبغي أن ينهض به الطرفان العربي والإيراني. علماً بأنني أزعم بأن ما بين العرب والإيرانيين الدين تربط بينهم أواصر العقيدة والجيرة والتاريخ أفضل بمراحل مما بين الأميركيين والإيرانيين.

هذا الخيار الأخير أحبه وأدعوه إليه، وأفهم أن عقبات عدّة تعترض طريقه، من بينها أن تصالح الأنظمة العربية مع إيران قد يستلزم إجراء مصالحة مسبقة بين تلك الأنظمة وشعوبها، وأخشى أن تكون المشكلة أكثر تعقيداً من أي مشكلة أخرى تتحسب لها في الآجل المنظور على الأقل. وتلك مشكلة عصيبة ومعقدة ليتنا نجد لها حالاً قبل فوات الأوان.

الجزيرة نت

المصادر: